قـــراءة الاسفار المحترقـــة

للشاعر التونسي محمد خالدي

في الوقت الذي تتسم فيه المحاولات الشعرية في تونس بالسطحية وقصور الرؤية النابعة من طبيعة المرحلة سواء اكان الامر متعلقا بالواقع المحلي ام القومي .. يطل علينا صوت جديد ذو تجربةحديثة ومواكبة .. لا يمكن اعتبارها اضافة فقط بل .. هي نسغ جديد لما يمكن ان تكون عليه تجربة الطليعة .. خاصة وان التجربة الشعرية التونسية الحديثة او ما يدعى « بغير العمودي والحر .. » هي مجرد ملء للفراغ الابداعي الحالي بل هي تعبير سمج عن ضيق الافق وضعف اللغة اعتبارا من تطعيم اللغة العربية واستعمال العامية بل وتراكيبها المغرقة في المحلية .. الى الاخذ الاعمى .. مما ينفع ويضر من الادب الغربي والفرنسي خاصة .. بما هناك من تيارات وافرازات برجوازية مرضية تعبر عن طبيعة مجتمع الاستهلاك كالبنيوية والوجودية والتجريبية .. الخ .. اكثر مما هي معبر حقيقي عن واقع شعبنا .. كما يدعي البعض ..

ومن هنا فديوان الشاعر التونسي ـ محمد خالدي ـ المقيم مؤقتا ببغداد : « قراءة الاسفار المحترقة » (*) يعتبر خروجا من البوتقة والضحالة على مستوى الرؤى الشعرية عبر مرحلتين :

ا ـ مرحلة ذاتية رومانسية خاصة في نطاق رؤية المجتمع .. وتتسم ببصمات الوجودية وتشيؤ الانسان نظرا لاعتبار العلاقات الاجتماعية مجردة ومعدومة من كل محتوى تاريخي محسوس .. وهذه المرحلة متمثلة في القصائد او بتعبير ادق .. القصائد الثلاث الاخيرة التي اختارها الشاعر واثبتها مترددا كما في تقديمه لها ـ في اخر الديوان .. وهو في هذه المرحلة من الابداع ـ والتي ستتواصل عنده متخذة صيغة جديدة كما سنرى ـ يعبّر عن الضياع والتلاشي وانعدام الهدف ، فاذا به بحار ممزق السفن كما في قوله في « سيرته » قصيدة « سيرة محمد خ .. » ص ٦٧ :

عاد غريب الدار
حضنت بقياه الدار
حدّث .. قال احبائي
من زمن وانا بحار
ابحرت كثيرا .. وكثيرا .. سفني مزقها الابحار
. . . . . .
ودخلت الحانات الموبوءة حيث تضيع الاعمار

ومن ثمة يكون الهرب الى البارات والى المرأة ـ التابو في محاولة يائسة للارتباط بالواقع :

ليلك يامولاتي (!) صلب
شنق ... اعصار
. . . . . .
عيناك هما مرفانا فعلام الابحار

ب ـ اما المرحلة الثانية فهي رؤية مسيّسة للواقع تصطدم الانا فيها بالواقع فتغدو ـ انا ـ الشاعر من قبيل الفردية الاجتماعية .. باعتبار المعاناة والتغلل في شرايين الواقع رغم ما يحدق بهذا الواقع من احباط سياسي واجتماعي ضمن الاطار الذي كثيرا ما تسقط فيه البرجوازية الصغيرة بما في ذلك فئة المثقفين .. ان الواقع هنا مغلق لا يتماشى وما يريد الشاعر وبالتالي فان الثورة محاصرة .. ويصير هروب الشاعر ـ دون رؤيا مستقبلية غالبا ـ بمثابة المعادل او البديل ...

ان البديل عند الشاعر حافل بالاسقاطات على مستوى المرأة .. او الاسطورة او الشعور الميتافيزيقي بالذنب .. ففي نظرته للمرأة حزن مشوب بخوف اجتماعي موروث هو الوجه الاخر للواقع الحضاري المتخلف .. ان المرأة ـ وهي رمز العطاء والحياة والوعي اذ بعبور قدسيتها وبتحطيم ـ التابو ـ ينطلق الانسان الى افاق اخرى ـ تصبح هنا موضوع الاسقاط .. موضوع الخوف .. ومهربا صعبا ، وهذا ما نلاحظه في اشد ازمات الشاعر على مستويين :

الاول : رؤية الواقع بعيني « الثوري الخائب » كما يعبّر الشاعر في قصيدة « قراءة الاسفار المحترقة » التي عنون بها الديوان ..

الثاني : الانتقال المفاجيء من التعبير عن الواقع الثوري الى احضان المرأة والمرأة المومس غالبا ، يقول في قصيدة : التجوال في المدن الهمجية (ص ٦٠) :

« .. سوّر الحرس الملكي الشوارع . صودرت الصحف ـ الشعر ـ نبض العروق التنفس . في البار المحها تشرب القهوة المرة الصبح او تقرأ الصحف الاجنبية .. جمراء كانت ملاغمها .. »

او قوله من قصيدة مبعثرة (ص ٧٠) :

اسرني السلطان
علقني
سمرني
ورشني بالطحلب الاحمر والقطران
لواحظ المغنية ..
نهر من اللذائذ الحمراء
ملاغم المغنية
مجاعة تفترس الاعضاء

والامثلة على هذا الانتقال المفاجيء كثيرة وتأتي براعة الشاعر في كون تلاحق الصور عبر الانتقالات السريعة لا يجزيء بقدر ما يعطينا مداخل سريعة وذكية لحالة الشاعر النفسية ..

ان الجسد في نداءه يتطلب تلبية لخلق انسان جديد وكذلك صوت الارض التي يعتبر نداؤها دون تلبية تعبيرا عن بعد الواقع الجديد الذي يحلم به الشاعر ..

ان هذا النداء المتجانس في كلا المثلين ـ الجسد والارض ـ سواء مرتديا لباس الواقع او الاسطورة كتعبير عن الواقع .. يدمج المكان في الزمان .. فيظل النداء في الساحة الشعورية لدى الشاعر تعبيرا عن البعد .. ـ هي هوة يردمها الشاعر بالجنس والتمرد والثورة على صعيد ـ الانا ـ لكن نفس النداء بالنسبة للارض يظل في لا شعور الشاعر فهو يحلم مع الارض محاولا خلق استجابة لنداء الارض ـ الوطن ... متمثلة في الفارس المنتظر .. هذا الفارس العربي دائما والمقبل من « الصحاري الهوج » .

ان الانتظار هنا عمل ـ لان الرغبة تحتاج دائما عند الفرد الى اشياء متدفقة من الاخر اي انها تكون معينة من خلال ـ رغبة «الاخر» ايضا ـ التي تحول دونها قوانين اجتماعية تنوس بين الحد المسموح به .. والتحريم ..

لذلك فرغبة الانسان تأخذ صبغتها الانسانية الاجتماعية لانها رغبة في الممنوع ، هذا الممنوع الذي يلوح في بنية المجتمع على شكل ـ لا ـ هـو في الحقيقة ـ نعم كبرى ـ للجنس وهذا في ضمير المجتمع فقط !

ان البحث عـن الاخر في تجربة ـ الخالدي ـ لا يتخذ الحب بل الجنس معبرا ، وهذا تعبير عن رفض القيود والتوصيات التي يدعمهـا المجتمع في الظاهر ويخالفهـا في صميمه ..

ان الاندفاع الجنسي يبدأ اثر الشعور بالوحشـة بينمـا الانطلاق من الحب يكـون بحثا عـن التآلف كمـا يقول علمـاء النفس وان كـان السبيل الثاني غير معبر عن الرفض الجذري ..

من هنـا تبدأ الغربة عبر ابعاد مختلفة :

- البعد الجنسي : المراة ـ الرجـل .
- البعد الذي يشمل « الاخر » بصفة اعم : الانسان ـ الانسان .
- البعد الاجتماعي والسياسـي : الفـرد ـ السلطـة ..

وما الخمر سوى تعبير اخر عـن الوحشة التي تنبع منهـا تجربة الجنس وتصب فيهـا .. وهما وسيلتا ـ محمد خالدي .. وتظـل الشهوة ممتزجة بالخوف . الخوف مـن المحرم .. اولا .. والخـوف الميتافيزيقي احيانا ، فالانسان جاد في تقلقله في الواقع الذي يرفضـه ويتغلغل فيه فـزيـد غربته ومن هنا أمل الشاعر (من قبيل الانتحار ..!) فـي قولـه (ص ٥١)

وطني المسلوب منفاي اغترابـي
كم وددت الموت فيه كي أوصد بابا .. اي باب

وذلك عبارة عن الشعور بالذنب الذي يتطلب العقاب Auto - Accusation كما في حالة الانتحار الذي لا تكون اسبابه واقعية ..

هناك ناحية اخرى تجدر الاشارة اليهـا وهي هذا الهروب الـى احضـان الام .. وهـو تعبيـر عـن فرار ـ الانا ـ امام الواقع .

« احبتني النساء كلهـن ... ! »

- رغبة في الامتلاك تدل على عدم وضوح الرؤية ـ المراهقـة اذا صـح التعبيـر .
- تعويض وحيل تعويضية للامتلاك واشباع الرغبات بتحويل المطالب التـي يصعب تحقيقها الى اهداف ممكنة التحقيق . حسب التحليل الفرويدي .. لكـن هذا الامتلاك ما هـو سوى تعويض كما قلنا .. كاحدى الحيل الدفاعيـة فالواقع لا يملكه سوى الامير .. اما الشاعر فـلا .. لان الامير هـو رمز طبقي كمـا انه رمز للسلطـة بالمعنـى الدقيـق (ص ٥٧) .

« ... سقطت ميتا على الموائد..احترقت (كان في عانتك الشهية انتحار غربتي)... الامير في انتظارها : يهيج بطنهـا يدمر الجميع ... من يشارك الامير ؟ وحده الذي يضاجع النساء .. وحده الذي ... اموت هاهنا ،هل تعرفون من انا ؟ ومن اكون ؟ »

... ومن يكون الفقراء ؟ .. ان هذا الاحباط الجنسـي مواكب للواقع الاجتماعي والسياسي : الوطـن مسافر ابدا .. بل هو منفى واغتراب .. تمزق بيـن الواقع والرغبة في التغيير بين السلطة ومـا تنادي به .. اصطدام بالتوسطات : الطقوس بيـن الله والانسان .. الجهاز البيروقراطي بيـن الفرد والانسانية .. التحريم بين الجسد والجسد .. للعبور الى الضفة الاخرى ضفة الخلق والابداع ..

ويأتي من هنـا تعبير الشاعـر عـن اصطدامه بالواقع .. ومـا رغبة الامتلاك سوى مجرد حيلة نفسية لان الشاعر سلب كل شيء : (وطني « المسلوب » منفاي اغترابي)

حتى الثورة .. محاصرة ... وكثيرا ما يتطرق الشاعـر اليهـا بندم .. والندم هنـا تعبير عـن السخط تجاه المحرم او الزلـة .. الخطيئة .. الذعـر الوهمي المعبر عـن الخوف من الحرية وهذا مـا نقراه لـه حول محاولات العرب تخطي لون المرحلـة :

« شاخت هذه المدن الغريبة
وهي ترحل في قصائدنـا . لبسنا حزنها
الوحشي احرقنا اصابعنا وقلنا سوف
يأتي الفارس العربي ان نبوءة العراف
صادقـة ...
... ولكنا خسرناها .. »

والكماشه التي تطوق الثورة ذات بعدين :

أ ـ الواقع السياسي والاجتماعي من جهة كما فيجل القصائد

ب ـ الايديولوجية المزدوجة .. وهذا ما نراه خاصة فـي قصيدة التجوال في المدن الهمجية (ص ٦٠)

« دخل السائح الامريكي فندق هلتـون
وزع بسماته الصفر ، بن بركة المغربي
يرقع برنسه والحذاء القديم .. »

ان السائح الامريكي في فندق هلتون هو رمز الامبريالية التـي تطوق الواقع الرث المتمثل في بن بركة .. وما اعمق الدلالة في قوله: « يرقـع .. برنسه والحذاء القديم » ! كدلالة على الخطوات العربية المحتشمة ـ مواقف الترقيع ـ الثوري ـ بدل التغيير الجذري ..

كل ذلك يولد تمردا فوضويا لدى الشاعر او ثورة ضيقـة تدخـل في نطاق عالم الانا دون الاشاره الى العالم الخارجي .. يقول الشاعر في تقديمه لقصيدة « قراءة الاسفار المحترقة » (ص ٥٦)

(هذه قراءة لخواطر رجل متعب يستحضر الماضي ويغوص فـي الحاضر فتتداعى افكاره وتختل الىدرجة الهذيان انه يرى بعيني الثوري الخائب .. نهايته تقترب ورغم ذلك فهو يتأمل ويبحث عن نفسه مـن خلال الاحتدام اللغوي ..)

ورغم هذه المقدمة فان انفعاله يجره فيمـا بعد فـي نطاق جدليـة العلاقـة بيـن العام والخاص .. ما دام الشاعر رمزا للثوريين الخائبين ومـا دام الفارس رمزا ايضا للانتظار ـ العمل .. الذي يتجرد من هذه الصفـة في أشد حالات اليأس ليصير تأوهات « سياسي المقاهي »ويظل الشاعـر موزعـا بيـن تغيير الحياة بالسب والرفض والتمرد (رامبو) والهروب الى عالم اخـر من باب « الجنائن المصطنعة » لبودلير وبيـن تغيير الواقع الصعب (ماركس) الذي تزداد صعوبته لانعدام التطابق بيـن افكار الطبقـة السائدة وتنميـة قوى الانتاج وسائر الحاجيات..

من هنا يأتي تحطيم الزمن واتخاذ الاسطورة كوحدة تربط الماضي بالحاضر وتؤرخ لرؤيـة مستقبلية .. ان الاسطورة تغدو حلقة اتصـال نتيجـة الاحباط كمـا ان فيهـا تنفيسا على الشاعر باعتبار ان هنـاك ديمومة لحالة الشاعر الخاصة .. السياب (؟) (ص ٦) عوج بن عنـق (ص ٨) الحلاج (ص ١٢) .. الخ.

ولئن كانت طريقة استرجاع الماضي بالذاكرة هي ديمومة لمحاكاة حركـة الواقع الكوني في تطوره ـ كمـا يقول برجسون ـ فان شاعرنا يعبر بها عـن تجاوز للحاضر لصنع واقع اخر .. لكننا لا نستشف ذلك بصراحـة نظرا لاكتفاء الشاعـر بنقل الحالة .. من هنـا ضرورة عدم توقف الوعي على الواقع .. وضرورة تجاوزه الى رؤيـة مستقبلية . وهذا ما يـلام عليه الشاعـر فعلا ـ لان البناء التحتي متى مـا كـان متدهورا فالبناء الفوقي ليس كذلك بالضرورة خاصة في العالم الثالث. فعبثا نستعمل الاسطورة للتعبير عـن عبثيـة الوجود (سيـزيف) او لاحتقار العامة (!) لان رد الفعل الثوري يتخذ الاسطورة تعبيرا لملحمة الانسان في صنـع العالم .. وهكذا تغدو الاسطورة صنعـا لواقع اخر بصورة بروميثوسية ، بل وسيطـا بيـن البناء التحتي والبناء الفوقي في المجتمع .. وهذا ما نلفت اليه انتباه شاعرنا حتـى يتجاوز آلام الحلاج .. والعودة الى الانسان السوي ـ انسان الاسطورة ـ طفولة الحضارة) .. الى رؤيـة ثورية واضحة ..

ان مجمل الشخصيات التي اختارها الشاعر سواء من التاريخ او التراث الاسطوري العربيين تلتقي في عدة نقاط :

١ ـ هي شخصيـات اعطت .. وظلمت ..وعطاؤها لم يجد ..

عبد القادر الحصني

مشاهد من الموت الرائع

المشهد الاول

لقد كان حزنا جميلا
فلم ابك الا لعينيك ذات المساء.
وما كنت الا حنين المزامير ..
لحنا ترددده الريح عبر ارتعاش القصب
وما كنت وحدي
فقد عبرت فيّ كل القوافل ذاك المساء
بعينيك
حين فتحت ذراعيّ ادركت سر انتمائي
وفاجأني الحزن في مقلتيك صليبا تعمّد بالدمع
كان الصليب بعينيك ظلي !!
ارتميت عليه ..
فادركت سرّ ابتدائك فيّ .
وسر انتهائي ..
لقد كان حزنا جميلا .
فلم ابك الا لعينيك ذاك المساء

* * *

المشهد الثاني

تخيّلت اني على شاطيء الكون جسم غريب
سيُرمى بعيدا بقلب الفراغ .
فخفت ..
صرخت امسكيني سأهوي الى اللانهاية
اما سقطت فما من قرار .
وحدقت .
كل المرايا حوالي كانت سجونا .
وكل المدارات كانت تراهق في لحظه الاحتضار
هويت
اتركيني ..
ولن تنقذيني مهما مددت ذراعي
تعرفت كيف تمارس بعض الكواكب نوعا من الانشطار
وساد سكون عميق .
ودوّى بقلب السكون انفجار
لقد كان حزنا جميلا .
فلم ابك الا لعينيك ذاك المساء

* * *

المشهد الثالث

أنا الآن عدت اليك .. فعودي .
لاكتب سفر صعودي .
أفسر نوع العلاقة بين تلاشي الحدود وبين وجودي .
فحين انطلقت الى مركز الدائرة .
تجاوزت مملكة الفرح المر ..
والبسمة الحائرة .
وحلقت في عالم المطلقات .
رأيتك في فرحة الخوف حين الفصول استحالت خريفا ..
تشدينني نحو نهديك في رعشة دافئة
تشدينني نحو حلم على كوكب عشقته الشموس
وقلت : هناك سيغسلنا النور عند عيون النهار
سنفلت من ربقه القيد
سوف نشق الحصار .
وعريتني في المحطة قبل وصول القطار .
وقلت بأنك ما عدت تحتملين احتراق المجرات .
نزف الهواجس .. والانتظار .
وقلت .. وقلت .. وما قلت شيئا .
لقد كان حزنا جميلا .
فلم ابك الا لعينيك ذاك المساء

* * *

المشهد الرابع

أنا الآن في برزخ الحبّ
أشتاق ان تحمليني اليه .
على صحوة السكر ..
عبر اغتراب المحار .
واشتاق ان تذبحيني على موقد حجري قديم
وان تحرقيني .
فاصعد في أعين الناسكين دخانا ونار .
اعلمهم من طقوس العبادة حبك .. والانتحار .
واخبرهم : ان في الكون حزنا جميلا .
وان القوافل تعبر في العاشقين بكل مساء .

حمص (سوريا)

---

٢ ـ تبعث بعد الموت كتحد لكن الغريب ان البعث يكون دائما ولادة في البار .. او ضياعا .. وغربة ، وهذه حالة الشاعر ..

٣ ـ غربتها ذات ديمومة ..

٤ ـ غلبة التعبير السردي .. الذي قد يبعدنا عن جو المعاناة لدى الشخصيات .

٥ ـ بعض الافكار الغيبية ـ وهذا ما لا نغفره للشاعر قطعا ـ كما في لوم الشاعر للقاهر بالله الفاطمي الذي اضطر في اخريات ايامه الى السؤال بعد العز فكان تسوّله لعنة على الاجيال اللاحقة (!) (ص ١٨)

الحزن النابت فيك نما فينا
ليتك لم تشحذ
ليتك لم تك ماضينا ...

٦ ـ ان الشعر يدعونا الى الصيرورة اكثر مما يدعونا الى الفهم كما يقول بول فاليري .. ولا بد من تفجير الواقع عبر الممكن وتجاوز مرحلة التصوير واستعمال الاسطورة كتاريخ لحالات نفسية واجتماعية فقط ..

اخيرا اشير الى مدى استغلال الشاعر للالفاظ في استعمالها باعتبار دلالتها المزدوجة المنطقية من جهة والنفسية من جهة ثانية (وان كان الاستعمال اضعف بالنسبة للدلالة الثانية) فلا بد الى جانب التموجات الصوتية للفظة .. من ظلال شعورية ملونة تتجاوز ضيق الفهم للمدلول باعتبار اللفظة دائما : موسيقى .. صورة .. ومدلولا ...

ولعله في عطائه المقبل سيطل علينا بتجربة اكثر عمقا واوضح رؤية حيث تضمحل او تنفص بصمات بعض الشعراء العرب على شعره ... كسعدي يوسف خاصة .. واذا اعتبرنا كون هذا الديوان هو باكورة نتاج الشاعر فان ثقتنا تزداد في قدرة عطائه التي ستتجاوز ـ كما نتمنى لها ـ مرحلة الثورة المقلقة ..

دمشق

محمد علي اليوسفي

(*) محمد خالدي ـ قراءة الاسفار المحترقة ـ شعر ـ مطبعة الغري الحديثة ـ ساعدت وزارة الاعلام على طبعه ..